«شهوة للمعرفة. المستشرقون وأعداؤهم»:

محاولة لتجريد إدوارد سعيد من إرثه الثقافي في تشفٍ ونزعة انتقامية

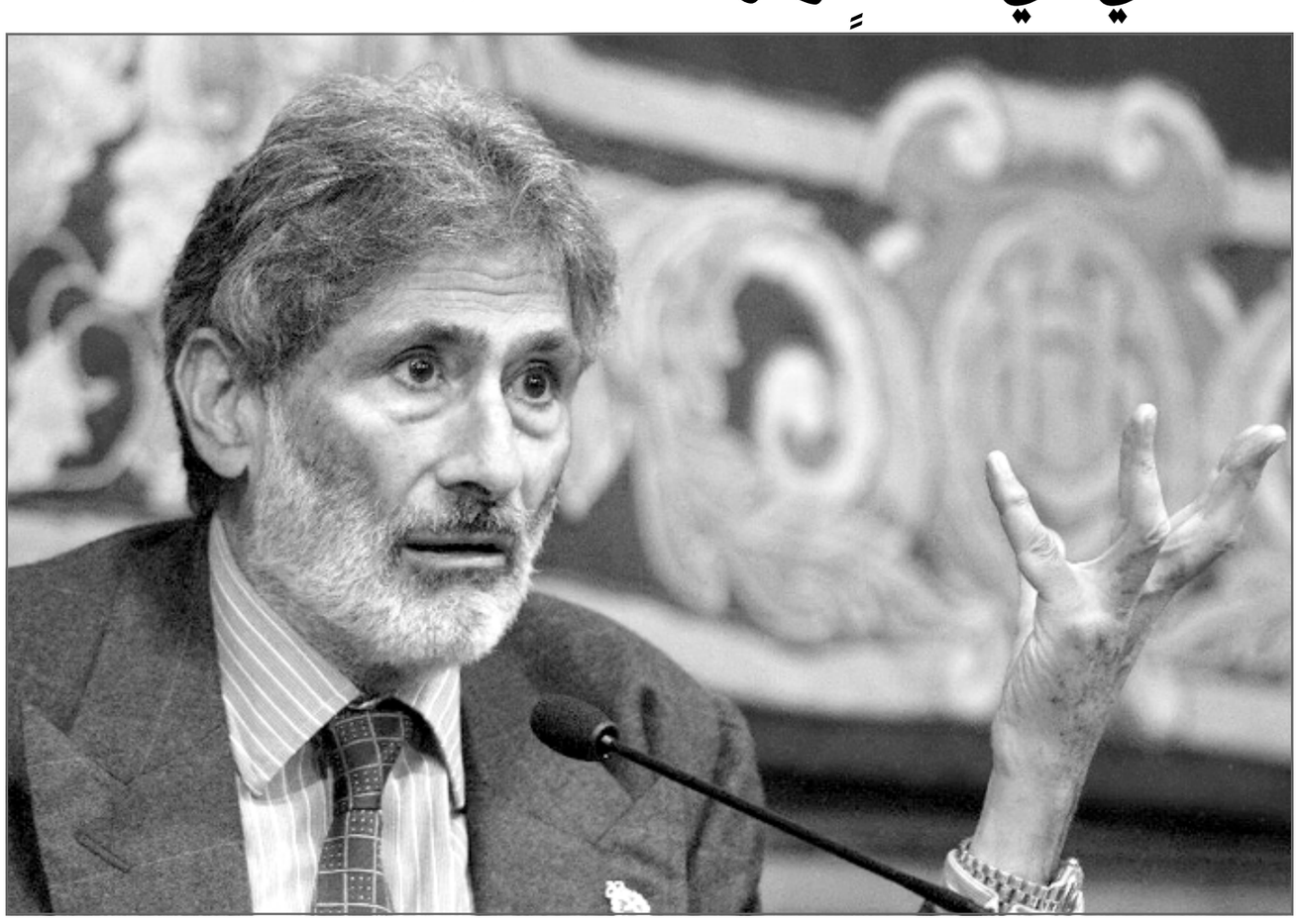

ادوارد سعيد

ابراهيم درويش*

■ اجد صعوبة في التعامل مع هذا الكتاب «شهوة المعرفة: المستشرقون واعداؤهم» لروبرت اروين، لعدة اسباب منها ان الكاتب يخرج عن الموضوعية التي يحاول اقناعنا بعدم توافرها في عمل ادوارد سعيد «الاستشراق» (1978)، وهجومه اللاذع على الراحل ادوارد سعيد، فهو لا يتورع عن وصف كتاب «الاستشراق» بالتدجيل، «الكتاب الذي يصعب فيه التفريق بين البحث المخلص والاخطاء واساءة الفهم المتعمد». كتاب سعيد يصلح ان يكون رواية لانه مليء «بالاشرار والعالم الخيالي الغني بالصور»، ويعتقد ان الاحتفاء به في بريطانيا يعتبر سبة في التاريخ الثقافي لهذا البلد، ويذهب بعيدا للقول ان كتاب «الاستشراق» لم يلق اي ترحيب من الاكاديميين وكل المراجعات الاولى للكتاب كانت سلبية، ومع ذلك اضحى كتاب سعيد من الكتب التي لا يستغنى عنها في الحياة الاكاديمية. وما يؤرق الكاتب هنا ان سعيد على الرغم من اطنان النقد التي تعرض لها لا يزال كتابه مؤثرا في الحياة الاكاديمية، وترجم لاكثر من 35 لغة وفي التساؤل عن السبب يرى روبرت اروين ان الامر لا يتعلق بمادة الكاتب في كتابه ولا تحليله لظاهرة الاستشراق بقدر ما انساق الطلاب، المثقفون واشباه المثقفين للكتاب لانه معاد للصهيونية، ولان اداورد سعيد كتب الكتاب وفي داخله ذلك الجرح بالخيانة التي تعرض لها شعبه الفلسطيني على يد بريطانيا، وضمن فهم سعيد للاستشراق كخطاب ثقافي فالمستشرقون لعبوا دورا في ضياع فلسطين.

تشعر منذ البداية ان اروين يتخذ ذريعة اضفاء نوع من الرومانسية على حياة المستشرقين والمهتمين بالعالم العربي لانتقاد سعيد، وشبح سعيد يلاحق الكاتب الذي يصارعه في كل صفحة من صفحاته، فهو يحاول تجريد الكاتب الفلسطيني الامريكي من اية سلطة علمية او ثقافية على الاكاديميا الغربية، وينتقد مدخله الانساني للمعرفة، واهتمامه بكتابات غرامشي، وفوكو ودريدا، عندما استخدمها في تحليل منظومة العلاقة بين المعرفة والسلطة وطبقها على حقل الاستشراق. ويريد اروين القول ان ادوارد سعيد الذي ارتكب اخطاء معرفية، لم يكن عارفا بماهية الاستشراق، وكان انتقائيا في تحليله لكتابات المستشرقين، حيث اهمل الاستشراق الامريكي والالماني وركز على الاستشراقين الفرنسي والبريطاني، كما يأخذ اروين على سعيد حصره الاستشراق الغربي بمنطقة الشرق الاوسط، او الشرق العربي حيث اهمل شمال افريقيا. وفي هذا السياق يشير الى ما سبق واشار اليه برنارد لويس، المستشرق المعروف من غياب كراسي الدراسات التركية والفارسية في الاكاديميات الغربية.

وفي محاولة لاقناعنا، يقول اروين ان غالبية الذين انتقدوا ادوارد سعيد كانوا من العرب والمسلمين، صادق جلال العظم، اعجاز احمد، ضياء الدين سردار وغيرهم. كنت سأتفهم دوافع الكاتب هنا للدفاع عن الاستشراق والمستشرقين لو انه لم يشر الى سعيد، فالكتاب في ملاحقته للعلاقة الثقافية بين الغرب والشرق ولاكثر من الف عام، اي منذ بداية اهتمام العالم اللاتيني او اوروبا في العصور الوسطى بالعالم الاسلامي وبداية رحلة العلم من الاندلس وصقلية شمالا عبر الترجمة الى عصر النهضة والتنوير ثم عصر الاستعمار والحداثة، كل هذا له ما يبرره وهناك العديد من الدراسات التي تصدر سنويا في الاكاديميا الغربية عن العلاقات بين اوروبا والشرق خاصة في ظل الامبراطورية العثمانية التي اثارت الرعب في قلوب المثقفين الاوروبين، بحيث اعتبروا الاسلام وتوسع رقعته بمثابة العقاب الالهي للمسيحية التي انحرفت عن الصراط المستقيم، لو كان غرض الكاتب عرض تاريخ «موضوعي» للاستشراق بهذه الصفة لقبلت منه اطروحته، ولكن اروين ليس معنيا بتحليل الاستشراق كحقل معرفة او اسلوب علمي، بل بحيوات المستشرقين، حتى في تحليله لاثر ابن سينا وابن رشد والعلم العربي على اوروبا الذي يقول ان اوروبيي العصور الوسطى خدعوا بالعلم العربي الذي لم يكن في الحقيقة علما ولا اصيلا، فبعد حركة الشغف والغواية بالمعرفة العربية، ارتدت اوروبا عن العلم العربي والاسلامي وانتبهت لضرورة العودة للاصول الاغريقية دون مساعدة العرب، طبعا لا يجيبنا اروين عن السبب الذي استمرت فيه اوروبا بدراسة العالم العربي والاسلام طوال القرون الماضية. طوال قراءة الكتاب الذي بالتأكيد يحوي على معلومات جيدة عن المستشرقين والاستشراق، تعريفاته ومدارسه ومراكزه لم اعثر على ربط بين غواية المعرفة والهوس بالبحث عنها وحيوات المستشرقين التي يريد اروين ان يصورها بالمملة، في محاولة لاستبعاد اي علاقة بين اعمالهم والقوة واستعمار الاخر، وتشكيل صورته بناء على المركزية الاوروبية او فكرة التسيد، التبعية والاستغلال. يرصد اروين مصائر الاستشراق وحركته من خلال تطور العلاقة بين عالم الغرب بالاسلام، فهو يتحدث عن الخطوط التي رسمت العلاقة وحددتها، العامل التركي، عامل صعود الاسلام قبل ذلك الذي اعتبر بمثابة تهديد للمسيحية، محاولة بعض «الاوروبيين» تفهم الاسلام. لم اجد هذا الربط في غواية العلم وحيوات المستشرقين، نعرف ان الاهتمام بالشرق بدأ في داخل المؤسسة الدينية التي حاولت فهم الاسلام للرد على «ترهات» المسلمين، فالكتابة وطباعة القرآن الكريم وترجماته جاءت لمساعدة المبشرين على فهم الاسلام وبالتالي الرد على المسلمين وانقاذهم باعتبارهم الفئة الضالة. ومع ان هذا الاهتمام في النهاية ايديولوجي الا ان الكاتب يقفز عليه. كان من الممكن فهم اطروحة الكاتب في اطارها التاريخي واحتفاءها بكتاب الاستشراق ولكن اروين يقع في النهاية في شرك التهمة التي ينسبها الى ادوارد سعيد وهي تسييس الاستشراق، فهو يستخدم المادة العلمية عن عمل وحياة المستشرقين لنقد سعيد.

لا ينكر باحث السجالات التي خاضها ادوارد سعيد مع عدد من الكتاب بعضهم صار من اشد المدافعين عن المشروع الامريكي وجزء لا يتجزأ من مشروع المحافظين للشرق الاوسط، ولا ينكر ان سعيد كان معتدا بنفسه وحساسا للنقد، ولكن هذا لا يؤثر على اطروحته التي قدمها في كتابه عن الدور الذي لعبه المستشرقون في استعمار العالم الاسلامي. وحتى اطروحة سعيد تعرضت للنقد، وبعد حوالي ثلاثة عقود من صدور كتابه لا يزال الاستشراق من العلامات الاكاديمية الهامة ولكن هذا لا ينفي عدم تعرض الاطروحة للسجال والنقد بل والتجاوز، فسعيد في طبعة التسعينات من القرن الماضي شعر بالحاجة الى اضافة مقدمة للكتاب، كما ان شعوره بضرورة وضع الاستشراق في سياقه الثقافي قاده لكتابة «الثقافة والامبريالية» كتتمة للاستشراق. وكان من الممكن لاروين تقديم قراءة نقدية لسعيد واستشراقه ضمن الخطوط الاكاديمية المعروفة، ورصد اخطاء سعيد، خاصة ما يرى الكاتب انه انصاف للمستشرق الفرنسي لوي ماسينيون على حساب الاستشراق البريطاني. فقد وصف سعيد الاستشراق البريطاني بالعلمية والعقلانية، والفرنسي بالروحية والرومانسية، هذا الوصف لا يفوت اروين الذي يقول ان سعيد يمكن ان يتهم بالعنصرية.

في داخل سرد الكاتب اذن عملية ادانة مقصودة ومتعمدة وتقصد في البحث عن الاخطاء والاتهام وهناك لا شك كتابة ثأرية وانتقام وتشف. في نهاية الكتاب وقبل ان يتحدث عن اعداء الاستشراق يكتب بتشف عن «الكذبة الكبيرة» التي عاش فيها سعيد واقنعنا بها وهي كونه الفلسطيني المهاجر المطرود من بيته، حيث يعيدنا الى الحملة التي شنها كاتب يهودي على سعيد عندما اتهم سعيد بانه ليس مقدسيا وعاش حياته كلها في القاهرة. وهي المقالة التي نشرت عام 1999، ولم تكن الا مقالا اتهاميا يقصد منه تشويه صورة الناقد الذي تجرأ على نقد اليمين في الاكاديمية الغربية. اروين يتخذ من المقالة كالمسمار الاخير في نعش شهرة سعيد، ولم يسائل وهو الذي يدافع عن حيادية الاستشراق عن صدقية الكاتب الذي اراد نزع الهوية الفلسطينية عن الكاتب. اروين يلتقط القصة، ويتحدث بما يشبه التشفي ان القشة الاخيرة في «عالم الكذب» الذي عاشه سعيد جاءت بعد نشر هذا المقال. بل ويتبنى ايضا ما ورد في سجال سعيد مع الباحث الاجتماعي والفيلسوف، ارنست غيلنر، الذي وصف سعيد بانه كاتب «غندور يعيش في مانهاتن»، ويقول ان غيلنر الذي مات عام 1995 كان يعد ردا قاسيا على كتاب «الثقافة والامبريالية»

لم يبق اذا من ارث سعيد ما يستحق الاحتفاء به حسب ما يريدنا اروين فهمه، ان سعيد لم يعد مهما في البحث الاكاديمي، خاصة ان ناقديه اكثر من مادحيه، بل يقول ان الاثر المفروض الذي مارسه سعيد على كتاب دراسات ما بعد الاستعمار مبالغ فيه، فهو يقول ان مؤيدي سعيد يؤكدون على تأثر كتاب مثل هومي باهبا، وغياتري سبيفاك بكتابات سعيد، وهو اثر ينكره الكاتب هنا. حتى يشكك اروين بدفاع سعيد عن العالم العربي والاسلامي، ويقول انه على الرغم من كتابات سعيد عن الاسلام، في الاستشراق وكتاب «تغطية الاسلام» الا انه لم يكن منصفا للدين. يعرف اروين موقف سعيد من الدين، فهو ظل علمانيا طوال حياته ولم يخف علمانيته، وكتابه «تغطية الاسلام» لم يكن دفاعا عن الاسلام بقدر ما كان يحلل الطريقة التي غطى بها الاعلام الثورة الاسلامية والاسلام. سعيد كان الكاره الاكبر للاستشراق الذي ير اه اروين غواية للبحث والعلم، وليس علاقات سلطة وقوة وهيمنة، ولكن كان هناك كارهون اخرون للاستشراق اسلاميو النزعة، مثل محمد كرد علي، وعبداللطيف الطيباوي، وسيد حسين نصر، وضياء الدين سردار، سيد قطب ايضا، وعلمانيون عرب مثل عبد الله العروي وانور عبد الملك وجلالي احمد. واذا اردنا ان نتهم اروين كما اتهم سعيد بانه لم يقرأ كتابات عدد من المستشرقين او الكتب التي اعتمد عليها فلنا ان نشير الى واحد من الاخطاء التي وقع بها الكاتب هنا عندما قال ان احمد غراب وهو من الذين انتقدوا الاستشراق كان سعوديا ومعلوماتي تقول انه مصري، طبعا ليست مهمتنا تتبع الاخطاء، ونعترف ان الباحث مهما احتاط ودقق ليس معصوما عن الخطأ، ولهذا في الادب الاسلامي الرقيق، كان الكاتب المسلم يعتذر بعد نهاية كتابه عن اي خطأ ورد في الكتاب وينسبه الى نفسه، وعندما يتوصل للصواب ينسب التوفيق الى الله العظيم. لا ينكر ايضا ان الكثير من رجال الاستشراق كانوا مدفوعين بقراءتهم للشرق بحس معرفي، لكن هذا لا ينفي ان كتاباتهم ساهمت في تشكيل صورة عن الشرق تتماثل مع مفاهيم الطموح الاستعماري والتسيد، فهم في النهاية نتاج القولبات التاريخية، والواقع الاجتماعي والثقافي الذي عاشوا فيه، لم يقل سعيد واعتقد ان اروين يتفق معنا ان كل المستشرقين كانوا جواسيس، مع ان هناك الكثيرين منهم تعاونوا وعملوا مع الادارات الاستعمارية في البلدان التي استعمرتها بلادهم بما فيهم برنارد لويس ولوي ماسينيون. ما كان يقدمه سعيد قراءة في البنى المعرفية التي اسست لعلم الاستشراق ومن حقه ان يستخدم اي مدخل نظري في نقد الاستشراق او دعمه، والكاتب اي كاتب ليس مبرأ من الوقوع في الاخطاء او اساءة التفسير، ولكن ان يتم اعتباره خارجا عن السياق الثقافي، كما يذكرنا اروين اكثر من مرة ان سعيد كان «خارجا» وهو لم يخف هذا، فعلاقة سعيد بكتابات جوزيف كونراد معرفية ونقدية وشخصية فمن خلال اعماله وحياة الكاتب الانكليزي ـ البولندي الاصل فهم سعيد هويته التي تدور في اطار الداخل والخارج وهوية المنفى، وعنوان مذكراته يشي بهذا الحس. سعيد ظل طوال حياته في امريكا محلا للهجوم من جماعات معروفة، والمقال الذي نشرته «مجلة لندن لمراجعة الكتب» (لندن ريفيو اوف بوكس) قبل اسبوعين عن اللوبي الاسرائيلي في امريكا يشير بوضوح الى ان هذا اللوبي الذي اقام مؤسساته الخاصة من اجل التأثير على الاكاديمين، ويتحدث كاتبا المقال وهما عميد في هارفارد وباحث في جامعة شيكاغو بوضوح عن استهداف جامعة كولومبيا التي كان يدرس فيها سعيد من هذا اللوبي. والسبب واضح هو مقارعة ادوارد سعيد عددا من اقطاب هذا اللوبي. اروين يقول ان الاستشراق الامريكي تسيده كتاب عرب، فيليب حتي، مجيد خدوري، جورج عطية سوريال، فضل الرحمن، ولكن سعيد كان واضحا في تحديده الاطار العام للاستشراق، وما بعد الاستشراق في الثقافة والامبريالية عندما استبعد امريكا من تحليله لادبيات الامبريالية، وركز على الامبرياليتين الفرنسية والانكليزية. الان في امريكا الكثير من الكتابات التي تتحدث عن الامبراطورية، خاصة بعد صدور المانفستو «القرن الامريكي الجديد» الذي اشرف عليه اقطاب المحافظين الجدد، وفي الكتاب المهم الذي صدر في امريكا «بوابة الاغتيال» لجورج باكر، تجلية واضحة للحرب الامريكية في العراق حيث يرى باكر ان غزو العراق بدأ اولا بايديولوجيا وحرب افكار قبل ان تكون حرب قنابل وصواريخ، وفي هذا السياق لا بد من الاشارة الى ان اروين في تقديمه لسجالات سعيد مع برنارد لويس، فؤاد عجمي، ارنست غيلنر، وكنعان مكية، يتساءل عن الرابطة بين احد اهم اعمدة الاستشراق الحالي في امريكا برنارد لويس وكنعان مكية، الجواب موجود في كتاب باكر «بوابة الاغتيال» لمن يريد مزيدا من المعلومات.

كما اشرت في البداية كان من الممكن قراءة الكتاب كمحاولة لرد الاعتبار للمستشرقين وليس الاستشراق وفقط لو لم يدخل الكاتب في سجالات واضح منها محاولة النيل والتقليل من شأن الانجاز السعيدي (نسبة لسعيد)، بل والاتهام والتشفي. اروين في نقده لسعيد يقول انه عندما توفي في ايلول (سبتمبر) 2003 حظي بعدد من المراثي في الصحافة الانكليزية، مع ان الاعلام الامريكي تجاهله كليا. في الموت لا شماتة وعندما يموت الانسان تذكر محاسنه، فهل كان الاولى من الصحافة تجاهل سعيد؟

اروين الذين يريد اعادة الاعتبار لاستشراق القرن التاسع عشر، القائم على الفهم الفيلولوجي للغة، لم يكن معنيا بالحديث عن صور الاستشراق الاخرى، في الفن، والرحلة، وفيما بعد في الصورة والسينما، بل لم يكن مهتما بتحليل بنى الاستشراق ومظاهره اكثر من احتفائه بالباحثين والعلماء الغربيين المتخصصين في الدراسات الاسلامية والعربية، وهو كما قلنا يقدم معلومات جيدة عن الكثيرين منهم، ويكشف عن الخلل في كراسي الدراسات العربية، وان الاهتمام بالشرق كان خيارا فرديا لم يكن مدفوعا بالايديولوجيا، من اثاناسيوس كيرتشر، راهب من طائفة الجيزويت في القرن السابع عشر، وريتشارد بيرتون الذي علم نفسه العربية ليكتشف لاحقا انها تكتب من اليمين الى اليسار. المستشرق الحقيقي في نظر اروين كان الفرنسي غليوم بوستيل وهو عالم معروف في الاسلاميات و «مجنون» ايضا.

العربية كما يشير اروين لم تكن الا تخصصا ضيقا، معظم المستشرقين الاوائل كانت معرفتهم بالعربية ضيقة، ويعرفون القراءة اكثر او اللغة العربية المكتوبة وليس العامية كما ان نقادا للشرق مثل لورد ماكولي صاحب السياسة التعليمية في الهند لم يزر الهند ابدا.

اروين يريد ان يؤكد التقاليد الاستشراقية الميتة، وانه من الحراس القلائل على علم الفيلوجي، اي تقاليد الدراسة اللغوية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، ويريد من خلال هذا الفهم التأكيد على ان الدراسة الاستشراقية لم تكن في يوم من الايام ارضا خصبة للسياسة او الايديولوجيا كما شرح ووضح سعيد، وهو هنا يدافع عن اخر جيل من المستشرقين الذين درسوه في الستينات، وبناء عليه يقوم برحلة في تاريخ الدراسات الاسلامية في الغرب منذ القرن الحادي عشر بل ابعد. يفهم من تحليل اروين انه يحاول اعادة الاعتبار لاسماء مهمة في الاستشراق مثل ويليام جونز، وغولدزيهر، وشاخت، ومرغليوث، وجب، وفي النهاية قراءة اروين تظل محاولة للتصحيح، ولو تمت بمعزل عن الانتقام من ارث سعيد لكانت دراسة جديرة بالاهتمام، ما يهم في هذا السياق هو ان اروين يريد القول انه اخر حراس هذا الارث.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

■ روبرت اروين: كاتب نشر العديد من الاعمال الروائية وغير الروائية «الف ليلة وليلة: دليل» (1994)، «الفن الاسلامي» (1997)، «الليل والخيل والصحراء: انطولوجيا الادب العربي الكلاسيكي» (1999)، «الحمراء» (2004).

For lust of Knowing
The orientalists and their Enemies
Robert Irwin
Allen Lane/ 2006

الاستشراق الآن وبعد...

عن مؤتمر الترجمة.. ومقالة «لندن ريفيو أوف بوكس».. والهجوم المستمر على إدوارد سعيد

د. محمد شاهين*

■ لا احد ينكر ان ادوارد سعيد صاحب الفضل في تقديم الاستشراق الى العالم وتقديم العالم الى الاستشراق منذ ظهور كتابه في اواخر السبعينيات من القرن الماضي، ذلك الكتاب الذي كان فعلا ثورة كوبرنيكية. ولّد الاستشراق اجناسا ادبية كثيرة مثل دراسات ما بعد الكولونيالية والدراسات النسائية ودراسة احوال المقموعين وما الى ذلك من النشاطات الفكرية والثقافية المختلفة التي تظل مدينة الى الاستشراق بطريقة او بأخرى واهمها الترجمة. فالعلاقة الشائكة جدا بين الشرق والغرب والتي هي محور الاستشراق جعلت من الترجمة على سبيل المثل فرعا مكملا للاستشراق ولهذا نلحظ الاهتمام الواضح بالترجمة في السنوات الماضية، اذ ان الترجمة كما لا يخفى على احد تشكل عاملا هاما في تقليص الهوة بين العالمين ان كانت الفرصة ما زالت متوفرة لعمل ما يلزم في هذا الميدان. واريد من هذا التقديم ان اتحدث عن مؤتمر الترجمة بين العربية والانكليزية الذي قام بتنظيمه المجلس الثقافي البريطاني في لندن ما بين السابع والعاشر من شهر آذار (مارس) من هذا العام. لسبب او لآخر لم احضر المؤتمر كله واكتفيت بحضور اليوم الاخير فيه تلبية لحق الضيافة او الاستضافة. وقد صادف ان كنت في طريقي لحضور ندوة في جامعة كيمبردج تبدأ في اليوم الذي يلي انتهاء مؤتمر الترجمة (وسآتي لاحقا على الحديث عن هذه الندوة).

اولا لن اقدم تقييما لمؤتمر المجلس فالذي حضر أيامه الأربعة احق مني في ذلك، اضافة الى ان ما جرى في المؤتمر كان حديث المؤتمرين على الأقل في المدة التي شهدت فيها حوادث المؤتمر. كذلك لا يمكن ان اشكك في نية المجلس الثقافي الحسنة لكن المجلس الذي ينظم المؤتمر لا يستطيع بأي حال من الاحوال ان يضمن فعاليات المؤتمر التي تقع على كاهل المؤتمرين من عرب وانكليز شاركوا في المؤتمر.

ومع كل هذا لا يفوتني ان اذكر في هذا السياق امورا ثلاثة ربما كانت لافتة للنظر. في احدى الجلسات تحدث نفر من الكتاب العراقيين في المنفى عن تجاربهم المؤلمة عبر عقود من الظلم والاستبداد ورغم كل ما اكن للمتحدثين شخصيا من ود وتقدير الا انني دهشت من عدم وجود علاقة لموضوع حديثهم بالترجمة الا اذا اعتقد المتحدثون ان هنالك علاقة بين الماضي البغيض الذي اضحى مترجما على يد الحلفاء المنفذين الى حاضر غير ذلك. اما الأمر الآخر فهو اقتراح تقدم به المؤتمرون بشأن تخصيص جائزة «بوكر» للرواية المترجمة تكون موازية لبوكر البريطانية. وعتبت على المشاركين او بعضهم على الأقل لانهم لم يذكروا ان لدينا بوكرنا الخاص التي يمنحها المجلس الأعلى للثقافة كل عامين. وآخر من حاز عليها كان الطيب صالح الذي ترجمت روايته الى الانكليزية ونشرتها دار نشر «بنجوين» مؤخرا وفي مداخلة عابرة اشرت الى التداخل الذي يمكن ان ينشأ عن هذه الفكرة.

وأهم ما يلفت النظر في المؤتمر هو ما ورد في حديث روبرت ارون الذي ربما يكون ابرز المتحدثين في المؤتمر سمعة! وهو من كتاب الملحق الأدبي لصحيفة «التايمز». بدأ حديثه بالقول انه لا يعرف سبب وجوده في المؤتمر اذ لا داعي لوجوده في مثل هذا المؤتمر كما اكد هو بنفسه على ذلك، ثم استطرد قائلا انه لا قيمة لما ترجم من ادب عربي حديث. وتساءل باستهجان شديد هل يمكن لنا ان نقول ان هنالك مترجما له قامة مثل أولئك المستشرقين أمثال آربري الذي ترجم القرآن؟ هل يمكن لنا ان نتخيل وجود من يترجم الطبري الذي بدأت ترجمته منذ عقود وما زالت مستمرة (ويقصد طبعا مشروع روزنتال استاذ الدراسات العربية في جامعة ييل والذي ما زال مستمرا بعد وفاته). ولا اعتقد انه كان سيقابل باي نقد من المستمعين لو ذكر على سبيل المثال بيرنارد لويس ورفاقه ولكن تحسبه جعله يتجنب بعض التفاصيل الاخرى التي عبر عنها كتابه.

وقد اصبح اروين معروفا هذه الايام بكتابه الذي صدر حديثا وهو «المستشرقون واعداؤهم» الذي يدعي فيه بطلان اطروحة ادوارد سعيد جملة وتفصيلا. ولا يخفى على احد ان الكتاب يعيد الى الأذهان تلك المعارك التي خاضها ادوارد سعيد مع ذلك النفر ابتداء من بيرنارد لويس مرورا بارنست غلنر والتي جميعها باءت بالفشل.

ومع ان ما قالته الدكتورة رضوى عاشور في نفس الجلسة كان في الصميم الا ان احدا من المستمعين لم يقم بالربط بين حديثها وحديث اروين، وكم كان بودي ان تقوم هي نفسها بذلك في هذه الحالة بدلا من ان تظل مداخلتها مقولة عابرة في كلام عابر طغت عليها المقولة الأخرى الماكرة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو اذا كان المؤتمر يهدف الى تشييد جسر من الاتصال والتفاهم بين الثقافتين الغربية والعربية كيف يقع الاختيار على من يحمل معولا لهدم الاساس الذي يمكن ان يقوم عليه هذا الجسر؟ لقد كان اروين امينا مع نفسه ويستحق الثناء والتقدير عندما بدأ حديثه بالقول انه مندهش بوجوده في المؤتمر. ربما كان يظن حسنا بالحضور او ببعضهم معتقدا انه سيواجه بعاصفة خصوصا وان ما قاله لا يزيد عن مقولته المثيرة التي يتضمنها كتابه، ذلك الكتاب الذي يقطر حقدا وكراهية على ثقافة الآخر.

همس في اذني احد الحاضرين مستحسنين ما قمت به من مداخلة، وكنت اتمنى الا اسمع مثل هذا الاستحسان كي لا اتذكر ان جماعتنا يعرفون الحقيقة ولكنهم يخشون الجهر بها مثل «بروفروك» في قصيدة اليوت او مثل الأيتام على مأدبة اللئام رغم ان ادوارد سعيد عاش حياته يعلمنا ان الحق قوة تلغي مذلة اليتم وجبن الهيمنة! انتهى الفصل الاول من الخطاب الذي بدأت رحلتي به.

توجهت بعد انتهاء المؤتمر مباشرة لحضور الندوة التي حضرت من اجلها. وهي ندوة اقامتها كلية كنجز بجامعة كيمبردج احياء لذكرى احد اساتذتها الذين رحلوا قبل سنوات قليلة واسمه توني تنر الذي كان من اعز اصدقاء ادوارد سعيد وكان، كما ذكرت في موقع سابق، اول من قدم ادوارد سعيد في بريطانيا على الاقل. وكلما كنت التقي بتوني كان موضوع حديثنا الرئيسي ادوارد، وهو الذي عمل على استضافته كأستاذ زائر ومحاضر في جامعة كيمبردج مرتين آخرهما كانت قبل رحيل ادوارد باشهر عندما كان صديقه توني للاسف قد سبقه في الرحيل! وعندما قرأ توني كتاب «بدايات» وهو في سبيل عرضه في الملحق الأدبي لصحيفة «التايمز» بعيد ظهوره سألني اذا ما كنت قد قابلت ذلك الكاتب الفلسطيني مستطردا ان ادوارد سيكون من المع المفكرين في القرن العشرين ويشهد على ذلك صديقنا المشترك الناقد باتريك برنرد . اشترك في الندوة ما يقرب من ثلاثمئة شخص من طلاب واصدقاء وزملاء توني الذين حضروا من جميع انحاء المعمورة. في الجلسة الاولى تحدث نفر من النقاد حديثا يدخل في نطاق انجازات توني المتميزة من دراساته في الأدبين الانكليزي والامريكي الى مقدماته لمسرحيات شكسبير في طبعة Everyman الشهيرة. وفي الجلسة الثانية شمل الحديث ذكريات المتحدثين من توني ومن بين المتحدثين كان فرانك كيرمود، وجون برو، وستيفن هيث، وكولن ماكيب، وهم جميعا من النقاد البارزين ومن بين الذكريات التي دوت بها قاعة الاجتماعات على مسمع من الجمهور الغفير التي امتلأت بها قاعة كمنجز هو ما ذكره توني في احدى المناسبات لاحد مريديه: ان له اصدقاء بينما ادوارد سعيد له اتباع (disciples) التي تترجم احيانا في العربية تلاميذ رد عليه صديقه وهل انت حزين بسبب ذلك فأجاب بالنفي مُعللا الامر ان هناك ادوارد سعيد واحد!

تذكرت على الفور كلمات محمود درويش في رثاء ادوارد سعيد: «سفيرنا في كل مكان وزمان». ورغم انني كنت الغريب الوحيد في مدرج كينز بين الانغلو سكسونيين الا انني شعرت بان غربتي تبددت واسترجعت هويتي التي ضاعت في رسل سكوير في ذلك المؤتمر، شعرت انني احمل جواز سفر احمر وليس وثيقة إقامة مؤقتة تصدقت بها على الفلسطيني بعض البلدان العربية الشقيقة.

انتهى الفصل الثاني

غادرت كيمبردج بعد الاحتفال في ذلك القطار الذي كان في يوم من الايام حاضنة لأشواق السلف من جبرا ابراهيم جبرا الى خليل حاوي الى توفيق صايغ ـ جميعهم كتبوا اشعارهم في رحلة القطار بين كيمبردج ولندن وهي الرحلة التي حضنت اشواق جماعة بلومزبري من فورستر الى فيرجينيا وولف الى روجر فراي وغيرهم. كثيرا ما يكون للمكان عبقرية تفجر الوحي. الم تكتب زيدي سميث مؤخرا روايتها التي رشحت لجائزة بوكر بوحي من نفس المكان الذي وجدت نفسها فيه والذي سبقها اليه فورستر.

المهم انني حملت معي في القطار العدد الأخير من مجلة «لندن ريفيو أف بوكس» قرأت المقالة الاولى التي هي في حجمها تساوي كتابا صغيرا. كتب المقالة استاذان احدهما استاذ علوم سياسية في جامعة شيكاغو والآخر استاذ علاقات دولية في جامعة هارفارد وعنوان المقالة «اللوبي الاسرائيلي»، لم يترك الاستاذان شاردة او واردة الا واورداها في سبيل الدفاع عن الحق الذي يحاول اصحاب الباطل طمسه بكل الحيل. ومن الطبيعي ان تثير المقالة في نفسي الشجن، شجن قضية الازل الذي يكاد الحق فيها يضيع بين عشية وضحاها. من يقرأ هذه المقالة من ابناء العروبة على الاقل يقف مدهوشا امام القوة والصلابة والمنطق التي يتحلى بها الاستاذان اللذان ربما لم يتعرفا على عربي واحد، ويقف مدهوشا ايضا امام الشجاعة التي تعرض المجلة كتابتهما دون ان يكون لها اي علاقة بجهة عربية ودون ان تسوق نفسها في اي مكتبة عربية.

والفكرة التي عنّت ببالي قبل وصولي محطة كنجز كروس هي ان قضيتنا تحتاج الى مثل هذا المستوى الرفيع من البشر ومثل هذا المستوى من الصحيفة التي استطاعت رئيسة تحريرها ماري كي ولمر Mary - Kay Welmer ان تجذب اليها الأقلام الحرة الشجاعة الذكية من جميع انحاء العالم دون اي ارتباط فيه مصلحة ذاتية او ارتزاق ولا ننسى في هذا السياق ان الصحيفة المذكورة كانت منبرا رئيسيا لفكر الراحل ادوارد سعيد. وبعبارة موجزة آن الآوان ان ندرك ان قضيتنا لن تنهض على يد المرتزقة من الانصار والمهاجرين خصوصا عندما تصبح القضية لديهم استثمارا سخيفا محدود الأفق.

عندما ابتعت المجلة المذكورة من مكتبة «باوندرز» في اكسفورد كانت النسخة الوحيدة المتبقية وكانت بجانبها مجلة فتية تعنى بشؤون الأدب العربي الحديث. دفعني الفضول الى السؤال عن مبيعات المجلتين وعلمت ان المجلة الاخرى لم يبع منها عدد واحد.

وفي جميع الاحوال فان المقالة المذكورة تبعث على الأمل. اذ يكفي انها تحتفظ بالشعلة التي حملها كتاب الاستشراق من اجل احياء الحق واحيائه، وهي تذكرنا ايضا ان قافلة اصحاب المبادئ لن تتوقف مهما حاول اعتراض سبيلها المصابون بعمى الالوان ومن يقرأ مقالة «لندن ريفيو اف بوكس» يدرك على الفور انها تجب بكل يسر مقولة روبرت ارون وما شابهها: الآن وبعد.. لانها تخاطب القاصي والداني بخطاب الايمان بالحق لا بخطابة التشبث به.

* ناقد وأستاذ الأدب الإنكليزي في الجامعة الأردنية